عـرض كـتاب

Aziz Pahad : Insurgent Diplomat: Civil Talk or Civil War- Penguin Books , 2014

عزيز باهاد الدبلوماسي المتمرد – حرب أهلية أم حوار أهلي

عرض أ.د. حسن مكي محمد أحمد*

عزيز باهاد، سليل أسرة هندية مسلمة، هاجرت من الهند إلى جنوب إفريقيا وأصبحت جزءا من مجتمع جنوب إفريقيا القائم على المجتمعات المتمايزة، حسب أيدلوجية التفرقة العنصرية، قمة الهرم والمواطنة البيض ثم الملونين ثّم في أسفل الهرم الأفارقة أهل البلد الأصليين.

وعزيز من مواليد 1940م، وشاءت الأقدار أن تكون كل عائلته الوالد والوالدة والأخوات أعضاء في المؤتمر الوطني الإفريقي ودخلوا السجن وذاقوا طعم الهوان والذل على يد النظام العنصري. وبالإضافة إلى عملهم هو وأخيه في المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا كذلك أعضاء في الحزب الشيوعي لجنوب إفريقيا، ووصل عزيز إلى عضو لجنة مركزية في كلاهما أي الحزب الشيوعي والمؤتمر الوطني الإفريقي بقيادة نيلسون مانديلا. ومن اللافت للنظر. أن معظم قيادات المؤتمر جاءت من الحزب الشيوعي، ربما لأسباب تاريخية، تتعلق بصراع الطبقات والنظرية الماركسية وكذلك لأن الكتلة الشيوعية كانت الداعم الأساسي لحركات التحرر الوطني في نهاية الخمسينيات والستينيات، والأمر الآخر أن مسلمي جنوب إفريقيا الذين نذروا نفسهم

* المدير السابق لجامعة إفريقيا العالمية- باحث ومفكر في الشأن الإفريقي، استاذ بمركز البحوث والدراسات الإفريقية.

لمكافحة النظام العنصري انخرطوا كذلك في سلك الحزب الشيوعي وأصبحوا من قياداته.

نبعت فكرة المؤتمر الإفريقي من ينابيع فكر المهاتما غاندي والذي كون أثناء وجوده في جنوب إفريقيا عام 1899 مؤتمر ناتال الهندي، واستمد المؤتمر الإفريقي اسمه من مؤتمر ناتال حيث ولد المؤتمر الإفريقي في عام 1912م.

من أبرز المسلمين الذين شاركوا في النضال وفي مرحلة مبكرة 1936 مجموعة المؤتمر الهندي لترانسفال بقيادة د. يوسف داود " دادو" وهو كذلك من مسلمي كجرات درس الطب في كمبردج كما تعمق في دراسة الماركسية، وحينما عاد إلي جنوب إفريقيا كون خلية مقاومة هندية في عضويتها عائلة عزيز وعائلة كابليا، وتناصرت هذه المجموعات داخل الحزب الشيوعي مع بقية مكونات مجتمع جنوب إفريقيا الشيوعية. وأصبح منزل آل عزيز مكاناً للقاءات قادة المؤتمر الإفريقي كمانديلا وولتر سيسيلو وغيرهم من قادة المؤتمر الوطني.

وفي أغسطس 1952م حينما تم اعتقال قادة المؤتمر تحت بند مكافحة الشيوعية، كان على رأس المعتقلين مانديلا وولتر سيسيلو وسبع مسلمين آخرين مثل د. دادو وإخوان كاجبلا الخ وحينما وقعت مذبحة شارفيل الشهيرة في 21 مارس 1960 كان من ضمن المعتقلين والد عزيز وأمضى في السجن ستة أشهر، وتعرف عزيز في مرحلة مبكرة على قادة النضال كمانديلا والبرت لوتالي وأوليفر تامبو واسماعيل مير.

دخل مشروع مكافحة التفرقة العنصرية عسكرياً في عام 1960م، وتكون مجلس أعلى للقيادة العسكرية من مانديلا سيسيلو وجوي سولوفو" مسلم: وريموند مهليا بالإضافة إلى والد مبيكي جوفان مبيكي وأحمد كاثرادا، وتم الإيعاز إلى أولفر تامبو بمغادرة جنوب إفريقيا لتكوين المكاتب الخارجية منذ ذلك الوقت المبكر، وافتتحت المكاتب الأولى في دار السلام بتنزانيا ولندن. وغادر د. داود إلى الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية لطلب العون باسم الحزب الشيوعي لجنوب إفريقيا.

تعرض المؤتمر الإفريقي لأكبر نكسة منذ تكوينه في عام 1912م حينما تم اعتقال قياداته في 11 يوليو 1963 ، وفي 11 يوليو 1964 حكم على مانديلا وجوفان مبيكي "والد الرئيس أمبيكي" وسيسيلو وأحمد كاتريدا بالسجن المؤبد، وفي ذات العام نجح د. داود في إيجاد منح دراسية في بريطانيا لبعض شباب المؤتمر الوطني ومن بينهم عزيز وأصبحوا من نواة مكتب المؤتمر الإفريقي والحزب الشيوعي في لندن والذين كان من أبرزهم أمبيكي. وفي ذلك الوقت تعالت الصيحات الدولية بعزل نظام جنوب إفريقيا العنصري وكان رائداً في ذلك البرت لوثالي الذي دعا لمقاطعة دولية منذ عام 1959م وحينما أعلن إيان اسميث قيام حكومة رودسيا الجنوبية زمبابوي فيما بعد على أسس النظام العنصري- زادت حركة المقاطعة الدولية .

لم تكترث حكومتا بريطانيا وأمريكا بالمقاطعة، بل ظلتا تزودان النظام العنصري بمطلوباته من السلاح والذخيرة والمساندة السياسية والاستخباراتية وابتداء من عام 1968م أيد مجلس الكنائس العالمي المقاطعة الاقتصادية لجنوب إفريقيا.

وفي 16 يونيو 1976م تمت تصفية أول كادر قيادي في الحزب الشيوعي وهو استيف بيكو مما أدى إلى تصاعد مقاومة الداخل والخارج ولكن بعض قيادة الدول الإفريقية كالرئيس هاستنج باندا رئيس مالاوي، وموبوتو سيسكو الكنغو زائير نكصوا عن مقاطعة جنوب إفريقيا على مستوى الدائرة الإفريقية كما نص عليها إعلان لوساكا في أبريل 1969م، رغم حضورهما للمؤتمر.

في بريطانيا صادق عزيز امرأة انجليزية مناهضة للتفرقة العنصرية وأنجب منها ابنه سام، والذي قامت بتربيته والدته. ومن بين عناصر الحزب الشيوعي والمؤتمر كان كذلك كل من يوسف سالوجي الذي أصبح ممثلا للمؤتمر في كندا، وأحمد تيمول ود. داود ومولوي كاجليا والذين التقوا في السعودية لأداء فريضة الحج على شيوعيتهم وكغيرهم فقد كانت لهم صديقات إنجليزيات "حياة صعبة ومتغلبة

ومضطربة بين ضغوط العاطفة ومطلوبات الأيديولوجية والتدين" وعاد أحمد لجنوب إفريقيا ليتم اغتياله تحت التعذيب في أغسطس 1972م، وأصبح رقم 22 من عضوية الحزب والمؤتمر ميتاً تحت التعذيب .

أما عن التدريب العسكري والإستخباراتي للقيادات والكوادر فقد تم استهلاله في ألمانيا الشرقية وموسكو، وتم عمل واجهات خيرية وشركات سياحية لتهريب الأسلحة عبر زمبابوي وكينيا ودار السلام، وأدى تواصلهم مع المعسكر الشيوعي إلى مبالغة الدول الغربية في الحذر في التعامل معهم وكانوا يبالغون في الخوف من المعسكر الشيوعي وتأثيراته للحفاظ على مصالحهم وتأييدهم للنظام العنصري في جنوب إفريقيا. وأرسلت لهم كوبا الأطباء والمدربين في غابات انجولا ودول المواجهة بينما قامت جنوب إفريقيا بدعم حركات الثورة المضادة مثل UNITA وكذلك دعمتها الدول الغربية وأمريكا لشغل دول المواجهة كانجولا عن مطلوبات دعم المقاومة.

صعد نجم المسلمين في الحزب الشيوعي لجنوب إفريقيا فبعد موت د. داود1983م أصبح موسى مابهيدا أميناً عاماً، أما رئاسة الحزب فقد ذهبت إلى جوي سلوفو- وكان من نجوم الحزب كذلك زوما وأمبيكي، وفي هذا الظرف، كان عدد المعتقلين قد تجاوز 30 ألف ومابين عام 1980- 1995م بلغ عدد القتلى المليون والمهجرين والنازحين ثلاثة ملايين – وتراوحت المقاومة إلى أشكال عدة، منها الإضرابات عن العمل، حيث وقع قرابة الثمانمائة إضراب– أي بواقع إضراب في كل شهر وأصبحت جنوب إفريقيا كأنما غير قابلة للحكم، ومع ذلك فإن مارجريت تاتشر كانت تصر على دمغ المؤتمر الوطني الإفريقي ووصمه بتهمة الإرهاب. وكانت أكثر الدول الأوربية رحمة بالمؤتمر الوطني السويد التي احتضنت رئيس المؤتمر أولفر تومبي، ولذلك حينما خرج مانديلا من السجن كانت زياراته الأولى لكل من روسيا وكوبا والسويد لتقديم الشكر. ولم تبدأ أمريكا بتواصل سياسي رسمي مع الاتحاد الوطني الإفريقي إلا في عام 1987م حينما قابل اولفر تومبي مساعد وزير الخارجية

الأمريكي جنستر كروكر Croker بينما كان تومبي يقابل في روسيا رئيس الدولة ميخائيل جورباتشوف.

وحدث التحول الرئيسي في سياسات النظام العنصري في جنوب إفريقيا، بعد أن اشتدت ضغوط مجموعة الكومنولث بإيجاد حل سياسي والمقاطعة الاقتصادية العالمية وضغوط منظمة الوحدة الإفريقية وتهديد مصالح الشركات الكبرى وهنا دخل أرباب الصناعات الكبرى في جنوب إفريقيا في حوار مع قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي في الخارج أساساً " أمبيكي ثم تطور هذا الحوار فدخل فيها ممثلو الدولة بعلم رئيسها بوثا Botha، ثم دي كليكرك، وإلى أن تمت الموافقة على إطلاق سراح المعتقلين السياسيين وعلى رأسهم مانديلا وتم ذلك ابتداء من عام 1990 وبعد 48 لقاء مع مانديلا في السجن، ويختم الدراسة بعودته من المنفى بعد إطلاق سراح المعتقلين وحرية العمل للمؤتمر الوطني والحزب الشيوعي– وانتهاء بأداء مانديلا للقسم رئيساً لجنوب إفريقيا في الأول من مايو 1994 بعد الانتخابات الحرة التي أقيمت في 27 أبريل 1994م .

تفادى الكاتب الإشارة إلى دور الدول العربية كمصر والجزائر والسودان في دعم كفاح جنوب إفريقيا ولم يشر إطلاقا إلى اسم السودان، كما أن الكاتب تجاهل الإشارة إلي دور إسرائيل كداعم للنظام العنصري في جنوب إفريقيا ودور الجالية اليهودية في ذلك وأن إسرائيل اشتركت في برنامج بناء القنبلة الذرية لجنوب إفريقيا واجراء تجارب نووية مشتركة ، لكن ذلك لا يقلل من قيمة الدراسة.